

دراسة تحليلية لرحلة "الخمرة المحسية في الرحلة القدسية"

لمصطفى البكري الصديقي

عمار توفيق أحمد بدوي / مفتي طولكرم / فلسطين

تعدّ مخطوطة "الخمرة المحسية في الرحلة القدسية" للصديقي (ت ١٧٢ هـ)، من أهمّ المراجع التاريخية في تاريخ القدس، وما حولها في القرن الثاني عشر- الهجري. وحظيت بالدراسة، والاهتمام من الباحثين، وبعد أن اطلعت عليها، وحققت نصوصها؛ رأيت أن أقدم دراسة موجزة حولها من حيث الشكل والمضمون.

قدّم الصديقي لرحلته مقدمة رائعة في بيانها، ومضمونها، وربط الرحلة ربطاً إشراقياً، بمضامين دينية؛ تتناسب مع موضوع الرحلة. وعنوان الرحلة "الخمرة المحسية"؛ فيه دلالة كافية على إغراق الصديقي بانفعالات سلبت حضوره الجسماني؛ ليغرق في عالم آخر؛ حملة إليه؛ سكره بمحاسن، وجمال، وبهاء، وروحانية القدس.

يؤكد الصديقي في مقدمته أنّ الرحلة للقدس شأن يقذفه الله في قلوب العباد؛ فتندفع نفوسهم شوقاً إلى محاريب مساجدها؛ لتستقر تحت قبابها الشّماء. قال: "حرّك دواعي الهمم؛ حتى قطعوا سبيل الغواية، وعبر بهم على سفن التقريب في أبحر الهداية...، ووهبهم استعداداً يستكشفون فيه عن المراتب العلية". فالسير للقدس، وإدراك معانيها السامية؛ يقتضي تحريك الهمّة العالية، وهذا يقتضي قطع سبيل الغواية عن المقصد الأسنى؛ ثم بعد ذلك يُشدّ السير نحو القدس؛ يُحمّل السائرون على أكفّ الرعاية، وهم يخوضون بحراً على سفن التقريب.

لم يكن الصديقي في روحانيته بعيداً عن الفهم السليم لروحانية المكان؛ بل كان منسجماً تماماً مع قدسيته، وقداسته، وطهره. قال: "هيج منهم السواكن على السير في البلدان، والأماكن؛ بقصد المهاجرة إلى البلاد المشرفة؛ فتركوا الأوطان، والمسكن".

قال عن المسجد الأقصى: "عَمَّرَ أَرْجاءه بتقاطر مُزْنِ الإمداد؛ فتلقاه دائماً بالرحمة مغموراً، وحفّه بالروحانيات العليا؛ فما تسير في فيافيه إلا وتجده بذلك معموراً. وأوقد فيه نَدَّ البسط؛ فمن دخله فإنه بالموارد الإلهية لا يزال مسروراً. وجعل منه العروج للمنازل الملكوتية؛ لم يدخله ظمآن إلا ويصبح بكأس القرب المغدق رِيَّان. ويمسي بورد الحُبِّ العلي مستغرقاً؛ لا يعرف حاله البيان. ولا يطيق حمل ما هو فيه من السُّكر الكيان؛ صاح غير أنه نشوان بالخمرة المعنوية".

هذه أبرز ما في مقدمة الرحلة. ثم شرع بعدها بذكر رحلته، وكيف بدأها، وما جرى فيها من حوادث، وأحداث.

✻ أسلوب صياغة الرحلة.

أولاً: الأسلوب الثري بالسجع.

صاغ الصديقي رحلته، بأسلوبين كتبيين؛ الأول: هو النثر، والثاني: الشعر، وأفرغ مضامين رحلته بهذين الأسلوبين. فأتسم أسلوب كتابة الرحلة بالسجع؛ إذ كان هو السائد في ذلك العصر الغابر. والسجع: "هو الكلام المقفى. وسجع يسجع سجعاً، وسجع تسجيعاً: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر، من غير وزن"^(١).

يأخذ السجع الكتابة إلى التكلف، ويميل بها أحياناً إلى معجم الكلمات المموجة لفظاً، ومعنى؛ ليحافظ على نغمة السجع، وأوزانه. وهذا مشهود في كثير من الكتابات التي اتخذت السجع وسيلة التعبير، وتقيدت بقيده، وإساره. ومن ذلك المخطوطة التي بين أيدينا.

نماذج من سجعه: أفلتَ قلم الصديقي كثيراً من تعقيدات السجع، ونكده؛ فأتى بكلمات مسجوعة مقبولة هنا، أو هناك؛ من ذلك. وقوله: "ولم نزل نرتع بين هاتيك الظلال، إلى أن كسف لون الشمس حزناً على فراق الأطلال". وقوله: "واخضر من شجر الآمال كلُّ يابس، وانبش بالسرور وجهه كلُّ عابس". وقوله: "وانتفى طيب المنام، وابتسم ثغر الوقت البسام". وقوله: "ولقد بكت ألسنُ الأقلام في مدة تلك الأيام".

الأسلوب الثاني: أسلوب الشعر

عَبَّرَ الصَّدِيقِيُّ عَنِ أَفْكَارِهِ، وَأَحَاسِيْسِهِ، وَانْطِبَاعَاتِهِ؛ بِالشَّعْرِ يَنْفِثُهُ صَدْرُهُ، أَوْ بِالشَّعْرِ تَغْنِيَهُ
قِيَارَتَهُ، وَتَسِيرَ عَلَى إِيقَاعَاتِهِ خَيْلُ الْقَافِلَةِ، وَحَادِي الرِّكْبِ، وَيَطْرِبُ لَهُ الْمَرِيدُونَ، وَيَبْكِي
لِنَعْمَتِهِ الشَّجِيَّةِ الْمُتَبَتِّلُونَ، وَتَصْغِي لَهُ زَوَايَا الْقُدْسِ، وَحَنَايَا الْمَسْجِدِ، وَقِبَابِهِ، وَمَأْذَنِهِ. وَتَنْوَعُ
شَعْرَهُ بِتَنْوَعِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي قَرَضَ فِيهَا قَرِيضَهُ، وَالَّذِي زَادَ عَنْ (٥٠٠ بَيْتًا) فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ.
❖ الْأَغْرَاضُ الشَّعْرِيَّةُ فِي شَعْرِ رَحْلَتِهِ: قَرَضَ الصَّدِيقِيُّ شَعْرَهُ فِي مَنَاسِبَاتٍ عَدِيدَةٍ. وَأَجْمَلَ

هنا الأغراض الشعرية التي جادت بها قريحته:
أولاً: شوقه للقدس.

كانت أشواقه للقدس عارمة، وصفها بقوله نثرًا: "ودواعي الشوق للطلول كالسيول"،
وترجم هذا الشوق شعراً، تفاخر به أنه من أهلها.

نحن أهل القدس والمقام الأقدس
مجلس القرب يقيناً في المعالي مجلسي

ثانياً: لوعته على فراق الأحبة وشوقه إليهم.

هذه اللوعة أصابت قلبه، حين فارق إخوانه، وأحبابه في الشام. قال:

لَسَعْتُ فَوَادِي سَاعَةَ التَّوْدِيْعِ وَسَرَى الْغَرَامُ بِمَهْجَتِي وَجَمِيعِي

وبدت عليّ كآبةً وصبابةً وتشوقاً لأحبتني وربوعي
وتزايدت زفراًتُ قلبي للحما وجرى من الآماق فيضُ
دموعي

لَحْ يَا بَرِيقَ الشَّامِ لِي لَوْ فِي وَمَبْشَرِي كُنْ بَرِّقَهَا بِرَجْوَعِي
الكرى

: تحية المكان الذي يزوره: وهناك أمثلة كثيرة على ذلك أقتصر على بعضها.

١ - وصوله جبّ يوسف عليه السلام.

حينما وصل إلى جبّ يوسف عليه السلام قال شعراً يصفه، ويصف الجوّ الماطر:

جِبِّ السَّيِّدِ الْمَعْصُومِ جِنِّنا فشاهدنا من الأفضال مُزنا

٢ - وصوله جنين.

بجنين واد الجبّ إن جزتم به وصار لديكم سرّ سرّي بادي

سلامي على سكانه بلّغونه أناساً بهجري قد جنوا وبعادي

وقولوا لهم قولاً بلينٍ عساهمُ بأن يرحموا مضنى المحبة صادي

٣ - نابلس:

أيها الركبان إذا ما جئتمُ أرض نابلسَ بها قيدوا المطايا

وانزلوا أكنافها لا تعدلوا عن رباها فهو قد أبدى الثنايا

وطيور الدّوح غنت طرباً وغصون الروض قد أمست

حنايا

٤ - سطوع أنوار القدس من البيرة. قال: "ومنذ شهدت ذلك المشهد الزاهر الذي هو

للعقول سلابٌ، وباهر".

إلى القدس الفيحا وردنا وإنّ ذا مناقبه جلّت عن الحصر والعدّ

وحركنا قرباً نسيمٌ عبيره علا وتسامى خالص المسك

ولاحت لنا أعلامه فاستهزّنا والـــــــنــــد

غرامٌ بنا نامٍ يجلُّ عن الحدّ

٥ - عند وصوله الشيخ جراح.

سلكنا فجاءاً نبتغي القدس علّنا يطهرنا التقديس بالوابل القدسي
وطافت علينا خمره معنوية بها غدونا مطلقين من الحبس

٦ - عند دخوله جماعين.

لما أتينا بشوق نحو جماعين مع رفقة لجماع الخير جماعين
رأيت آثار قومٍ للعلا داعين بني قدامة أرباب التقى والدين

٧ - عند وصوله بلدة الطيبة.

أذكرتني الطيبة طيبه وانتشقنا في الحمى طيبه
وسقا قلبي تذكرها كاس حبّ قد نفى عيبه

٨ - تحية لمنطقة الحرم المسماة حرم سيدنا علي بن عليل، وهي قصيدة رائعة، منها قوله:

قد جرى الدمع فوق أرض مذ وقفنا بظل تلك الحدود
الحدود

وكرفنا عرفا عرفنا ابتداء وانتهاء له صفا في الورود

وبدت زفرة الغرام فأخفت أضلعي في الهوى وأوهت جلودي

سادساً: المديح.

من ذلك مدحه سيدنا موسى عليه السلام، بقصيدة طويلة مطلعها:

هل لصبّ قد أثخنوه كلاماً وصلّ من نال من مناه الكلاما
سيد منجد صفي وفيّ مرشد مسعد أنيل مراما

ومدحه أهل الغار من المدفونين في غار الخليل، بقصيدة منها:
يمم بصدق نحو أرضٍ قدّست وتشرفت بذوي المقام الأشرف
أهل الدلالة والجلالة والهدى وضياء نور المسلك المتعفف

مدح نبي الله داود عليه السلام، بقصيدة منها، قوله:
بدر تم به البدور تسود وحبیب إلى الحیب يقود
وصفي قد اصطفاه وليّ بالمني والهنا علينا يجود

سابعاً: حبه ووصفه المسجد الأقصى وقبة الصخرة.
عبر الصديقي عن حبه العميق للمسجد الأقصى المبارك شعراً، ومن أجمل شعره قصيدة
في وصفه، منها هذه الأبيات:

لولاك ما وافى لقدسٍ زائرٌ تركَ الديارَ مجرداً لولاكا

أنت الذي حسدتك سكان العرش والكرسيّ قد هناكا
السا

فاضت كؤوس الحب في قلب الصديقي؛ فأنشد قصيدة ملهمة رائعة بحبّ الصخرة
المشرفة، منها قوله:

يا صخرة الله إنّ القلب يهواك ولم يزل مغرماً في حسن محياك

ومن يعاينها صخرًا فقسوته تبدو لدى كلِّ درّاك ونساكي

بل تلك جوهرة عمت ببهجتها غرباً وشرقاً وعرباً مثل أتراك

ثامناً: من وحي تجليات ذكر الله تعالى (الحبّ الإلهي).

بعد حلقة ذكر، هامت نفس الصديقي في الحبّ الإلهي، على طريقة أهل التصوف، وفاضت كؤوسه بهذه القصيدة الرائعة، منها هذه الأبيات الرائقة الزاكية. قال الصديقي:

"فاعترى القلوبَ طربٌ ساقه لها مبدعُها، ووردَ على اللسانِ أبياتٌ قلتُها، ومطلعها":

بدا في الدجى نورٌ فأيقنت أنني بأنوارك نشوان يا أمّ مالك

ومنذ تجلّيتي لقلبي حبيبتني سلّيت فؤادي في معاني جمالك

تاسعاً: حب القدس.

قال في ربيع القدس المزهرة قصيدة منها:

دمع العيون على الخدود يسيحُ مذ باح بالسر المسرّ الشيحُ

وغدا الفؤادُ بأنّ أنّه عاشقٌ لا يستطيعُ بما يكنّ يبيحُ

✿ أبرز مضامين الرحلة:

أرّخ الصديقي يوم انطلاق القافلة من دمشق إلى القدس، وهو يوم الخميس في التاسع عشر من محرم سنة ١١٢٢هـ. ورحلته كانت في فصل الربيع بجماله، وبهائه. قال: "وكان ذلك في زمان الربيع، والنسيم لطيب عرفه مذيع". ويبدو أنّ الجو كان يميل للبرودة ليلاً، قال عند وصوله قرية سعسع: "وقد اخضرّ ذاك الرُّبا، ونور نوره شعشع. وبتنا هناك في ليلة

بالسرور مقمرة، إلا أنها بشدة البرد مثمرة". وعاد إلى الشام قادماً من القدس بليلة النصف من شعبان من عام ١١٢٢هـ.

صحبة الصديقي خاله في هذه الرحلة: سافر الصديقي إلى الديار المقدسية بصحبة خاله السيد يحيى حسن الموقع حلبي. وكان تاجراً يجوب الأرض يتاجر ببضائعه، اعتمد الصديقي عليه في أكثر من موقف؛ فحينما وصلوا نابلس؛ نزل برفقة خاله عند أحد أصدقائه. وكذلك في القدس، وكان يمتلك دكاناً في القدس، قال الصديقي: "بينما أنا عند الخال في الدكان، وكنت أتردد عليه في بعض الأحيان".

المسافرون في الرحلة: فيا زائرون، وتجار، قال: "وصلنا عيون التجار مع من معنا من الزوار، والتجار". وكان التجار محمّلين بالبضائع؛ وما يدل على ذلك اشتباك القافلة مع المعتدين عليها قرب نابلس، قال: "وأرادوا أن يأخذوا بعض أثواب من التجار".

ربط التصرفات بالإذن الروحي: ذكر الصديقي عادة معروفة عند أهل التصوف؛ عند ارتحالهم، وتصرفاتهم بالأشياء الجليلة خاصة؛ أنهم يستشيرون شيوخهم، ومنهم من يطلب الإذن من الشيخ في فعل الشيء، أو تركه. فقد يكون الإذن من الشيخ الحي، وقد يكون رؤيا في المنام، وظهر طلب الإذن الروحي في أكثر من موطن عند السفر، ودخول القدس.

المبيت: كان مبيت الصديقي، في الخانات المنتشرة على الطرق، وفي خانات البقاع التي زارها، وكذلك في بيوت الأصحاب، والمساجد، والزوايا.

✪ القدس والمسجد الأقصى المبارك في الرحلة

رحلة الصديقي للقدس، هي رحلة دينية النوازع، والهدف؛ ولهذا كانت منسجمة في أحداثها، مع هدفها، ونزعتها. فالرجل لم يشد الرحال إلى القدس؛ ليصوّر بناياتها، ويتحدث عن عمرانها، وما شابه ذلك.

برز المسجد الأقصى في الرحلة، فكان له النصيب الأوفى، وأظهرت الرحلة هذا المسجد المبارك في جوانب عديدة منها:

١- أبرز المكانة النصية للمسجد الأقصى المبارك: أبرز الصديقي المكانة الدينية النصية للمسجد، فوصفه بأنه ثالث حرم. وهذه منزلة نصية في الحديث الشريف؛ من حيث شدّ الرحال إليه، بعد المسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف. وقال: وهو قبلة الأنبياء، ومكان العروج للسماء. وهذه أيضاً أوصاف دلّت عليها النصوص.

٢- أبرز المكانة الروحية للمسجد المبارك: قال: "عمر أرجاءه بتقاطر مَزْنِ الإمداد؛ فتلقاه دائماً بالرحمة مغموراً، وخصّ بالتجليات الرحمانية الأنسية، وحفّه بالروحانيات العليا، فما تسير في فيافيه إلا وتجده بذلك معموراً".

٣- أبرز الأثر النفسي للمسجد على زائريه: قال: "فمن دخله فإنه بالموارد الإلهية لا يزال مغموراً، لم يدخله ظمآن إلا ويصبح بكأس القرب المغدق ريان، ويمسي بورد الحُبّ العلي مستغرماً؛ لا يعرف حاله البيان". وقال: "فإذا دخل الزائر من أي أبواب الحرم كان، شاهد إشراقاً، ونوراً قد عمّ تلك الأركان، وعان ما يسر خاطر، ويهيج قلب المقيم، وال خاطر؛ فكان الحال فيه بجنة النعيم راتع، أو بروضة من رياضها، أو قل بجنة الفردوس اليانعة أزهارها، والمتدفقة ينابيع حياضها". وقال: "فيا له من مشهد للعجائب. ومن معبد مُدِنٍ غير مبعد للغرائب؛ كم تشهد فيه من صارخ، وباكي، ومتأوه من الغرام، ومن ثقل الذنوب شاكِي. وكم تشتبك فيه دموع على خدّ واله ولوع؛ حتى يكاد أن يتفطر من المحبّ الجنان، وتذوب من الصبّ الطروب الحشاشة، والأركان، لولا أنه يبرد نيران غصته، ويظفي لهيب عجيب زفرته؛ بشرية من كأس دافق؛ ليسكن قلبه الخافق".

٤- تحدّث عن أثر بركة المسجد على أهل القدس: قال: "أفاض على أهله سحائب الجود، والكرم".

٥- تحدّث عن أشواقه الرفيفة للمسجد الأقصى المبارك: قال عن شعوره الدافق نحوه: "وتقلقني الأشواق عزيمة إثر عزيمة إلى زيارة بيت المقدس الشريف". فهي قلق بمعنى دائم التفكير بزيارة المكان المقدّس في القدس.

٦- وصف القدس ومعاهدها ومعابدها والمسجد الزاهر: قال: " ذات الطلّول الزاهرة، والربوع الطاهرة الفاخرة، والمعاهد ذات الدلائل الباهرة، والمعابد التي فضائلها، وآثارها؛ ظاهرة".

٧- هيامه ومشاعره الفيّاضة حين سطعت أنوار القدس: قال: " ولاحت لنا أنوار المسجد المحبة، وأشرفنا على بيت المقدّس، والمنزل السامي النفيس الأنفس. ونادى هناك من معنا من الغلمان فرحاً بما بدا، حيّا الله ما بان؛ فأخذنا لذلك الطرب، والاهتزاز، وكل منا بالسلامة قد فاز".

٨- وصف حاله عند دخول المسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة، ومقارنته بالمسجد الأموي: قال: "فتأهبنا إلى ذلك بالطهارة والخضوع، وسكبنا على سالف الذنوب منا الدموع، ثم سرنا لذلك الحرم المحترم، والمسجد الأقصى المبارك المقدس المعظم". وقال: "ودخلنا متوشحين بالذل، والانكسار، وصعدنا سطح الصخرة العالي المنار، فنظرنا فإذا ذلك السطح المنور يزيد على جامع بني أمية في الكبر، والنور انتشر- في أكنافه، وقد عمّ سائر أطرافه". وكان يتمتع بالتردد على المسجد قال: "وعدت إلى التمتع بزورة قبة الصخرة، والأقصى، والتردد إلى هذه المعالم التي فضائلها لا تحصى".

✿ الانشغال بالعبادة والعلم: اغتنم الصديقي فرصة وجوده في القدس؛ لتكون مناسبة ذهبية في العبادة، والصلاة في المسجد الأقصى المبارك، والانشغال بالعلم. قال: "وكنت ملازماً فيه على الخمسة أوقات بالجماعة. وأنا ملتحف برداء الخفاء، كلّ ساعة، وكنت أغلب الأوقات أجلس في الدار أكتب تارة، وأطالع فيما معي من الكتب خوف الاشتهار". فتحت زيارة القدس، للصديقي آفاقاً رحبة في عالم الكتابة، والتأليف، قال: "وأصبح معي الدواة والقلم، وأكتب للتسلي ما يجري به منزل نون والقلم". فأبدعت ريشته نثراً، وشعراً. وصنّف رسائل، وكتباً في رحلته، أشهرها وردُّ السحر.

❖ حوارات ومناقشات: جرت في الرحلة مناقشات، وحوارات في مسائل علمية، أو ذات علاقة بالتصوف، وأصوله منها: مناقشة قول الشيخ عبد الغني النابلسي بإيمان فرعون، وما نقله عن ابن عربي، ومناقشة مع أهل بيت إكسا في مسائل تتعلق بالإرشاد، وأصوله في الطريقة الخلوتية، وأدبياتها.

❖ وصف الأماكن التي زارها:

وصف القدس: قال: "ذات الطلّول الزاهرة، والربوع الطاهرة الفاخرة، والمعاهد ذات الدلائل الباهرة، والمعابد التي فضائلها، وآثارها؛ ظاهرة".

وصف جسر بنات يعقوب، وما حوله من ربيع: قال: "نخبط في انحدراته الوعرة الصعبة خبطاً. وخرجنا إلى أفناء ذلك الجسر البديع، والروض الأريض الذي لشذاه مديع، وشربنا ذلك الماء الدافق، وشممنا عطرَ النسيم الذي في جنباته خافق... ونطلق الطّرف في ذلك الربيع الفائح، والزّهر الذي بشذاه المسكّيّ بائح".

وصف عيون التجار وجامعها: قال عنها: "بها قد نعق بومُ الخراب. وقاربت أن تساوي التراب. وبدخلها جامع لطيف البناء، متسع الأكناف، منيف سامي الفناء".

وصف جنين: في العهد الذي وصل فيه الصديقي جنين، كان فيها قلعة، فوصفها، كما وصف سهلها الأخضر. قال: "وسرنا إلى أن وصلنا جنين ذات القلعة والحصن الغير الحصين، وأطلقنا الدواب ترعى في ذلك المرعى الخصب". وقال: "فاح من تلك الروابي زهور، لا يماثلها نَدُّ، ولا عنبر، ولا كافور".

وصف نابلس: قال: "ذات الطلّول المطلة، والربوع المأنوسة". وقال: "سرنا حتى وصلنا واديها الخصب، وشاهدنا ما قد حواه من العجب العجيب، ورأينا طواحينه الدائرة، ونجوم أزهاره التي هي كالكواكب السائرة، ونزلنا عند عين ماء، كأنه زلال صافي".

وصف سنجل: قال: "أطلقنا الناظر في تلك المشاهد، والمناظر. وصلينا الصبح على مرج طيبه عبيق".

وصف جبل الطور: قال: "وأما جبل الطور؛ فهو جبل النور، والهنا، والسرور. مضت لنا فيه أيام كانت بصفا جامها بارقات أحلام؛ تهادى في قصوره بين ولدان، وهور؛ فإنه جبل جامع لما لا يحصى من أنبياء الشكور".

وصف موسم النبي موسى عليه السلام: وهو من أهمّ المواسم، وأكبرها في فلسطين، وله ترتيبات منمّقة يقوم بها الناس تحضيراً له. أطال الصديقي في وصف الموسم، وما يجري فيه. وكان الموسم مزدحماً باختلاط النساء بالرجال، حتى كاد هذا الاختلاط يحول بينه وبين الزيارة. وصف ساحة مقام النبي موسى عليه السلام، وتحليل بعض الظواهر: قال: "في ساحة الكلیم عليه الصلاة والتسليم، آبار للماء معدّة تجمع مياه الأمطار، وتستقي منها الزوار في هذه المدة". خان جب يوسف: وصفه بأنّه جُبٌّ لطيف. وقال: "غير أنه مضيق". وفي طرفه بركة ماء، واسعة الجوانب يشرب منها المارة.

❖ معلومات جغرافية مستفادة:

جسر بنات يعقوب: قال: "وقطعنا الجسر الذي فوق النهر الجاري، وأصل هذا النهر يخرج من جهة قرية الحولى يفيض بقدره الباري، ثم يمر حتى يدخل إلى بركة المنية، ثم يخرج منها، ويمر في بلاد الغور بلا مرية، ويسمى بنهر الشريعة، وعليه جسر المجمع، حتى يدخل إلى بركة لوط".

جب يوسف عليه السلام: ذكر أقوال العلماء، واختلافهم في مكان جبّ يوسف عليه السلام، منهم من قال: "في الأردن، وبيت المقدس، وما بين مصر، ومدين، وطبريا. وذكروا من حفره...". أهمية منطقة عيون التجار: قال: "ومن هذه المحطة، تفرق أرباب الخلطة؛ فالذاهبون نحو البيت المقدس يأخذون شمالاً، والذي نحو مصر يأخذون غرباً".

❖ الحالة الأمنية في الرحلة وقطاع الطرق واللصوص:

اتسمت الحالة الأمنية على الطرق بالضعف، وفقدان الاستقرار، ولم تخل من كمائن قطاع الطرق؛ يترصون بالمسافرين؛ لينقضوا عليهم؛ سلباً، ونهباً. وقد وقعت حوادث واشتباكات ذكرها الصديقي في رحلته منها:

الأول: الاشتباك بالبنادق مع قطاع الطرق بعد خروجهم من منطقة عيون التجار: سلكت القافلة طريقاً وعرة كلها صخور. قال: "فبينما نحن نسير ضحىً في تلك البقاع، وإذا بمردف، ومعه آخر من القطاع، فعرف الركب أنهم طليعة؛ فاجتمعوا، وأطلعوا المكاحل البديعة، حتى ملأوا تلك الصحراء من ضربهم، وأعلموا الكامنين بشدة بأسهم، وحرهم".

الثاني: قطاع الطرق ما بين جنين ونابلس: قال الصديقي: "فما تركنا الجفن مع المشيئة يطرقه الكرى، حتى ذكرنا دعوة اسمه اللطيف، وهي ستة عشر ألف وستماية وإحدى وأربعين مرة؛ فأورثتنا طمأنينة القلب من العدا".

الثالث: اللصوص عند سنجل: أُخبرت القافلة بلصوص يتربصون عند سنجل، قيل في مهارتهم إنهم "كلصوص الري في المهارة". ولكن الله سلم القافلة، ولم يسرق منها شيء.

الرابع: ما بين بيت لحم والخليل: قال: "ولم نزل سائرين، والخوف معنا رفيق من قطاع ذلك الطريق. كلما قطعنا وادياً نخوف بكمين دفين؛ بدا لنا آخر".

✽ اللجوء للتعويذات دفعا للشر والخوف وطلباً للحماية: قال عند المبيت في خان جسر بنات يعقوب: "وصعدنا بعد ذلك إلى الخان، وبتنا، ونحن نحوط المكان، والسكان، من طوارق الإنس والجان. وهكذا كان فعلنا في كل مكان". وهكذا الحال مع قطاع الطريق فلجأ الصديقي والتعويذات، قال: "ذكرنا دعوة اسمه اللطيف، وهي ستة عشر ألف وستماية وإحدى وأربعين مرة؛ فأورثتنا طمأنينة القلب من العدا".

✽ المقامات والأضرحة والزوايا والمدارس: زار الصديقي عدداً كبيراً من المقامات، والأضرحة، والزوايا، والتكايا، والمدارس، منها: الشيخ جراح في القدس. مقام يونس عليه السلام، مقام علي البكا، مقام كنفوش، مقام الأربعين، مقام سلمان الفارسي، مقام رابعة العدوية، مقام أبي زيتون، مقام علي بن علي العمري، مقام تقي الدين، مقام الفضل بن هارون، مقام المنصور.

وزار عدد من الزوايا، والتكايا، وهي: الزاوية الأسعدية. وزار عدداً من المساجد: وهي المسجد الأقصى المبارك، والمسجد الإبراهيمي، ومسجد سلفيت. ومسجد عورتا.

وزار خلوات؛ خلوة الدجاني، الخلوة النحوية، خلوة في المسجد الأقصى نفسه، خلوته في نابلس، الخلوة في المدرسة الباذرائية. وزار المدرسة الجراحية، والمدرسة الباذرائية.

✿ الحوادث العامة: اجتمع بشيخ بني صعب من منطقة طولكرم، الشيخ مقلد الجيوسي، ودار الحديث بينهما بأمور كثيرة، منها حصار نصوح باشا لقلعة الكرك، وما آلت إليه الأوضاع فيها، والخوف من قدومه لمنطقة بني صعب.

✿ مصادر الرحلة: ١: مشاهداته الشخصية. ٢: الرواية الشفوية من علماء فلسطين، وأهلها. ٣: الرواية الشفوية من خاله. ٤: رحلة شيخه عبد الغني النابلسي. ٥: تفسير البيضاوي. ٦: قصص الأنبياء للثعالبي. ٧: إتحاف الأخصا للسيوطي. ٨: نقل عن الأنس الجليل للحنبلي، والإشارات للهروي بوساطة النابلسي.

✿ المدن والبلدات والقرى التي زارها في فلسطين: توجه الصديقي من دمشق نحو فلسطين، ومرّ ببعض البلدات الشامية، منها داريا، والقنيطرة. أما المدن، والبلدات، والقرى، والمواقع الفلسطينية التي زارها أو مرّ منها، فهي: نهر الأعوج، سعسع، الحولى، خربة المنية، المنية، جب يوسف، حجر النملة، عيون التجار، جنين، نابلس، سنجل، البيرة، القدس، الشيخ جراح، الخليل، أريحا، العيزرية، الغور، طور زيتا، عورتا، مقام النبي موسى، مقام الراعي، قلعة البرك (برك سليمان)، سلفيت، جبل الطور، راس أبي زيتون، بيتونيا، حرم سيدنا علي، بيت إكسا، جماعين، منطقة بني صعب من منطقة طولكرم، حَجَّة، الطيبة "طيبة المثلث من بني صعب".

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب. ١٥ مج. بيروت: دار صادر. بلا تاريخ ولا رقم طبعة. ج ٨ ص ١٥٠. مادة سجع. تشبيه: ما كان بين قوسين صغيرين " " فهي نقول حرفية من مخطوط الخمرة المحسية في الرحلة القدسية للصديقي. لم أشر للصفحات، لاختلاف الترقيم بين المخطوطات الثلاث، التي اعتمدت عليها في التحقيق.